الرفق في الأمر كله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الرفقُ صفةٌ كريمةٌ وخُلقٌ جميلٌ، فيه سلامةُ العرضِ وراحةُ الجسدِ واجتلابُ المحامد، خلقٌ من أشهرِ ثمارِ حُسنِ الخُلقِ وأشهاها، ومن أظهرِ مظاهرِ جميلِ التعاملاتِ وأبهاها، خُلقٌ يقول فيه نبينا محمدٌ ﷺ:«إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كلِّه»[1].

والرفقُ هو لِينُ الجانبِ، ولطافةُ القولِ والفعلِ، وحُسْنُ الصنيعِ، وتقديمُ المُداراةِ والمُلاينة، وترجيحُ المقارَبةِ، والدفعُ بالتي هي أحسن، وتركُ الإغلاظِ والعَجَلة، ومجانَبة العنف والحدَّة والشِّدَّة، ومبايَنةُ الفظاظة والصلف، والقسوةُ في الأقوالِ والأفعال، والخروجُ عن حدِّ الاعتدالِ، وأَخْذُ الأمرِ بأحسنِ الوجوهِ وأيسرها وأسهلها.

الرفقُ أخذٌ للأمور بأحسنِ وجوهها وأيسر مسالكها، وهو رأسُ الحكمةِ ودليلُ كمالِ العقلِ وقوة الشخصية، والقدرة القادرة على ضبطِ التصرفاتِ والإراداتِ واعتدالِ النظر، ومظهرٌ عجيبٌ من مظاهرِ الرشد، بل هو ثمرةٌ كبرى من ثمارِ التدينِ الصحيح.

(١) صحيح ابن حبان | الصفحة أو الرقم : ٥٤٧.

عناصر الموضوع

- الرفق في معاملة الخلق
- الرفقُ من ثمرةِ حُسنِ الخلق.
- صفةُ الرفق.
- معنى الرفق.
- الرفيقُ اللهُ جلَّ جلالهُ اسمٌ من أسماءِ اللهِ الحسنى.
- الرفقُ واللين في هدي محمد صلى الله عليه وسلم.
- أولى الناس بالرفقِ واللين.
- الرفقُ مطلوبٌ مع الناسِ كُلهم.
- الرفق بطالب العلم.
- الرفقُ مطلوبٌ مع المعسرِ والمدين.
- الرفقُ مطلوبٌ مع المُخالف.
- الرفقُ بالنفسِ.
- الرفقُ كذلك مطلوبٌ حتى مع الأطفالِ والصغار.
- الرفقُ بالحيوان.
- الرفقُ أن تضعَ الأمورَ مواضعها.

الرفقُ في معاملةِ الخلق

الرِّفقُ بالناسِ، واللِّينُ معهم؛ مِن جَواهِرِ عُقودِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ، وهي مِن صِفاتِ الكَمالِ، واللهُ سُبحانَه وتَعالى رَفيقٌ يُحِبُّ مِن عِبادِهِ الرِّفقَ.

إنَّ الناسَ في حياتِهم فُطِرُوا على المعاملة، فلا يُمكنُ للعبدِ أن يعيشَ لوحدِهِ، بل لا بُدَّ له من أُناسٍ يأنسُ بهم، ويتداولُ معهم مصالحَ الحياة.

نعم، قد يظلمك الآخرون، وقد يُسيءُ إليكَ الآخرون، وقد يتجاوزونَ عليكَ، وقد يعتدونَ عليكَ ويؤذونك.

قد يكونُ هؤلاء من الأقاربِ أو الجيرانِ أو الأصدقاءِ أو الأباعد؛ فهذهِ هي الحياةُ الدنيا فيها الدنيءِ السيئِ وفيها النبيلُ النقي، فيها الكريمُ وفيها العفو، وفيها المُسامحُ وفيها العنيدُ وفيها اللئيم، وفيها الحقُّ وفيها العدل، ويبقى العفوُ أقربُ للتقوى؛ ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٣٧]

وقال -تعالى-: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1]؛ أي يعملُ بعضهم عند البعض فيتبادلون المنفعة، ولهذا لا تدومُ المعاملةُ بينَ الناسِ إلا بأمرٍ عظيم، حضَّ عليهِ الشرعُ المُبين، وبدونهِ تنفصمُ عُرى المعاملة، ومَن فقَدهُ فلا يكادُ يجدُ مَن يتعاملُ معهُ في هذهِ الحياة.

إنهُ الرفقُ الذي به تزدانُ المُعاملة وتحلو الصُحبة، ويتنافسُ الناسُ في العطاءِ والخدمة، بروحٍ طيبةٍ ونفسٍ سهلةٍ مع حُسْنِ ظَنٍّ بالجميع.

الرفقُ ضد العنف؛ وهو لينُ الجانبِ بالقولِ والفعلِ والأخذِ بالأسهلِ في المعاملة، ولا يحسنُ الخلقُ إلا بضبطِ قوةِ الغضبِ وقوةِ الشهوةِ وحفظهما على حدِّ الاعتدال.

(١) [الزخرف: ٣٢]

الرفقُ من ثمرةِ حُسنِ الخلق

إنَّ من أبرزِ مظاهرِ تميّزِ الإنسانِ وسموِّ أحاسيسهِ اتصافهُ بالرفق؛» الرفقُ في الأمورِ ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسنُ الخُلق».

فالرفقُ صورةٌ من صورِ كمالِ الفطرةِ وجمالِ الخلقِ التي تحملُ صاحبها على البرِّ والتقوى، وإنَّ علاجَ الخطأ، وإصلاحَ المُخطئ، لا يكونُ إلا بالرفق، فيحتاجُ أن يرفقَ بنفسهِ ويرفقَ بغيرهِ.

صفةُ الرفقِ طالما تحدثَ الناسُ عنها، واستحسنتها نفوسهم، وامتدحها منتدياتهم، ولكنها السلوكُ الغائبُ والخلقُ المفقودُ لدى كثيرٍ من الناسِ غير قليل، بل إنها غائبةٌ عند بعضِ الناسِ حتى في أنفسهم، ناهيكم بمن حولهم من الأهلِ والأقربين.

صفةُ الرفق

صفةٌ كريمةٌ وخلقٌ جميلٌ، فيهِ سلامةُ النفس وراحةُ الجسدِ واجتلابُ المحامد، خلقٌ من أشهرِ ثمارِ حسن الخلق،

ومن أظهرِ مظاهرِ جميلِ التعاملاتِ وأبهاها.

فالرفقُ تحكُّمٌ في هوى النفسِ ورغباتها، وحملٌ لها على الصبرِ والتحملِ والتجمل، وكفٌّ لها عن العنفِ والتعجل، وكظمٌ عظيمٌ لما قد يلقاهُ من تطاولٍ في قولٍ أو فعلٍ أو تعامل.

معنى الرفق

الرِّفقُ الذي يعني: الاتِّصافَ باللِّين والسُّهولة واللطفِ في الأقوالِ والأفعال، والأخذَ بالأسهل، والدفعَ بالأخفِّ.

وقيلَ: الرفقُ ضد العنف.

الرفقُ محمودٌ، وضدهُ العنفُ والحدة مذموم.

والعنفُ ينتجهُ الغضبُ والفظاظة، والرفقُ واللينُ يُنتجهما حسنُ الخلقِ والسلامة.

الرَّفِيقُ

فربّنا عزَّ شأنه رفيقٌ بخلقِه، رؤوفٌ بعباده، كريمٌ في عفوه، رفيقٌ في أمرهِ ونهيه، لا يأخذُ عبادَهُ بالتكاليفِ الشاقّة، ولا يُكلفهم بما ليسَ له به طاقة؛ قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣).

فإنَّ الله –تعالى– لما أرسلَ موسى –صلى اللهُ عليه وسلم– إلى فرعون الطاغية المتكبر الذي ليسَ بعد طُغيانهِ طُغيان، ادَّعى الألوهية وقتلَ بني إسرائيل، وسخَّرَ الناسَ بين يديه، بل بلَغَ من طغيانهِ أنه جمع جنودَه وبنى صرحاً عالياً ليرقى إلى إلهِ موسى فيُقاتِله ومع ذلك لما أرسل الله موسى وهارون إليه قال –سبحانه–: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾(٤).

(١) [البقرة: ٢٨٦]
(٢) [البقرة: ١٨٥]
(٣) [الحج: ٧٨]
(٤) [طه: ٤٣-٤٤]

فإنهُ –صلى اللهُ عليه وسلم– تعاملَ مع الناسِ على اختلافِ مستوياتهم، وفي مواضعَ كثيرة من حياته؛ بالرفقِ واللين، في إصلاحِ الأخطاء.

وكان– صَلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم– رفيقاً حتى بالأعداء.

والرفقُ خلقٌ نبويٌ كريمٌ حثَّ عليه النبي –صلى اللهُ عليه وسلم– وبيَّنَ فضلهُ وقيمته، في صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: أَنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا :السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ، أَوِ الفُحْشَ»، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ

تَسْمَعِي مَا قُلْتُ، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»[1]

رسولُ الله ﷺ هو المثلُ الأعلى والأسوةُ الأولى في أفعالِه وأقوالِه ومعاملاتِه رِقّةً وحُبًّا وعطفا ورِفقًا؛ ولذلك أثنى المصطفى صلى الله عليه وسلم على الرفق.

فتكاثرت النصوصُ التي تحثُّ على الرفق، وتُرغِّبُ فيه في أحاديث النبي صلي الله عليه وسلم ومنها:

إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله:

في حديثِ عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: قال رسول الله ﷺ :لَّا يا عائشةُ !إنَّ اللهَ يُحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّهِ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟ قال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ–:وقد قُلْتُ :وعليكُمْ[2].

إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كلِّه[3]

رفيقٌ من أسمائه –تبارك وتعالى– يحبُّ الرفق، كما أنه جميلٌ يحبُّ الجمال فهو رفيقٌ يُحبُّ الرفق.

يُحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله، بمعنى أنَّ الرفقَ في كلِّ الأمورِ مطلوبٌ ومحبوب، والقاعدةُ في هذا أنَّ كلَّ ما يمكنُ أن يتوصل إليه من طريقِ الرفقِ فإنهُ لا يختارُ سواه.

فقد عظّم النبي ﷺ شأنَ الرفقِ في الأمورِ كلها، وبيّنَ ذلك بفعلهِ وقولهِ بياناً شافياً كافياً؛ لكي تعملَ أمّتهُ بالرفق في أمورها كلها:

إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ».

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) باختلافٍ يسير.

(٣) صحيح ابن حبان | الصفحة أو الرقم ٥٤٧.

أولى الناس بالرفق واللين

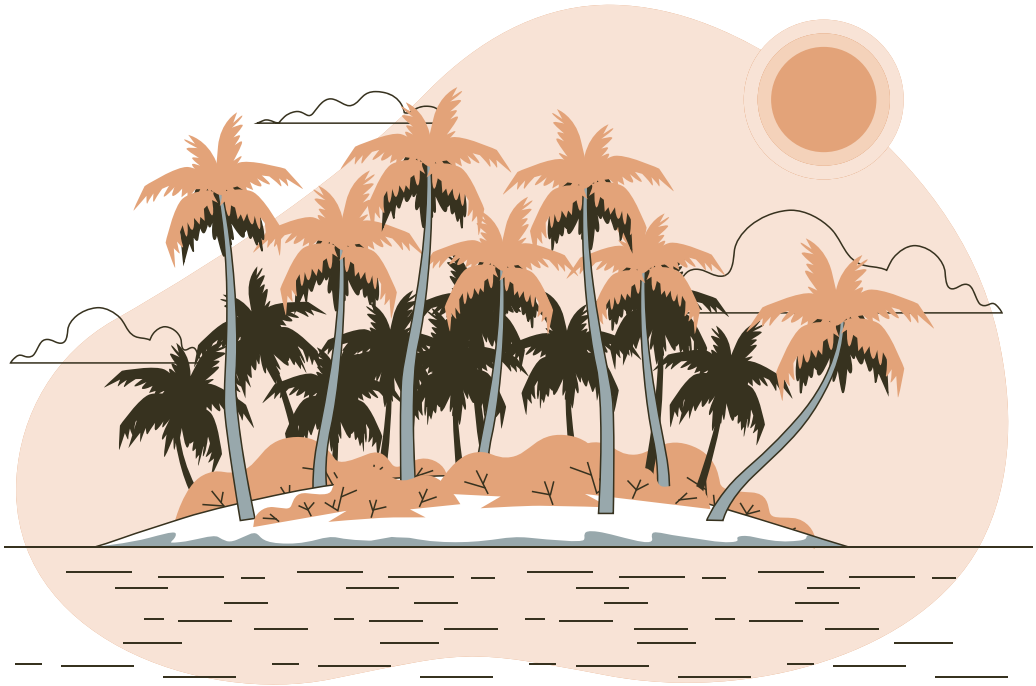

١. الأهلُونَ والأقربون، وخُصوصاً الوالدين الكريمين: قالَ جلَّ وعلا: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾[1].

الرفقُ بالوالدين، والرفقُ كما يكون في تربيةِ الأولاد، والتعاملِ مع الزوجات، والأهلِ والأقرباء.

(١) [الإسراء: ٢٣-٢٤]

٢. ومن أولى الناسِ بالرفقِ واللين: الخدمُ والعمَّالُ والأُجراء:من أوجبِ أنواع الرِّفق: رِفقُ ربِّ العمل بمن يعملُ لديه، وأن يتجنَّب الشِّدَّة والغِلظةَ مع العاملين معه،

فعن عَبْدالله بْن عُمَر –رضي الله عنهما– قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه كَمْ نَعْفُو عَن الْخَادم؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْه الْكَلَامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالثَة، قَالَ: اعفوا عَنْهُ فِي كُلّ يَوْمٍ سَبْعينَ مَرَّةً»(١).

وفي صحيح البخاري: «ولا تكلُفُوهم ما يَغْلبُهم، فإنْ كَلَفْتُمُوهم فَأَعينُوهُم».

ولقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام حافلةً بهذا الخلق الكريم، فكان النبي ﷺ رفيقاً هيناً ليناً سهلاً في تعامله وفي أقوالهِ وأفعاله، وكان يحبُّ الرفق، ويحثُّ الناسَ عليه، ويرغّبهم فيه، فلا بد من رِفق ربِّ العمل بمن يعملُ لديه، وأن يتجنَّبَ الشِّدَّة والغِلظةَ مع العاملين معه.

يقول أنس رضي الله عنه: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ»(٢)

قال أنس رضي الله عنه: خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنين، فما قال لي قطُّ: أُفّ، ولا قال لي لشيءٍ فعلتُه: لم فعلتَه، ولا لشيءٍ لم أفعله: افعل كذا.

(١) أخرجه أبو داود (٥١٦٤)، والترمذي (١٩٤٩)

(٢) البخاري (٣٥٦١، ٦٩١١) مفرقاً، ومسلم (٢٣٠٩، ٢٣٣٠)

الرفقُ مطلوبٌ مع الناس كُلهم

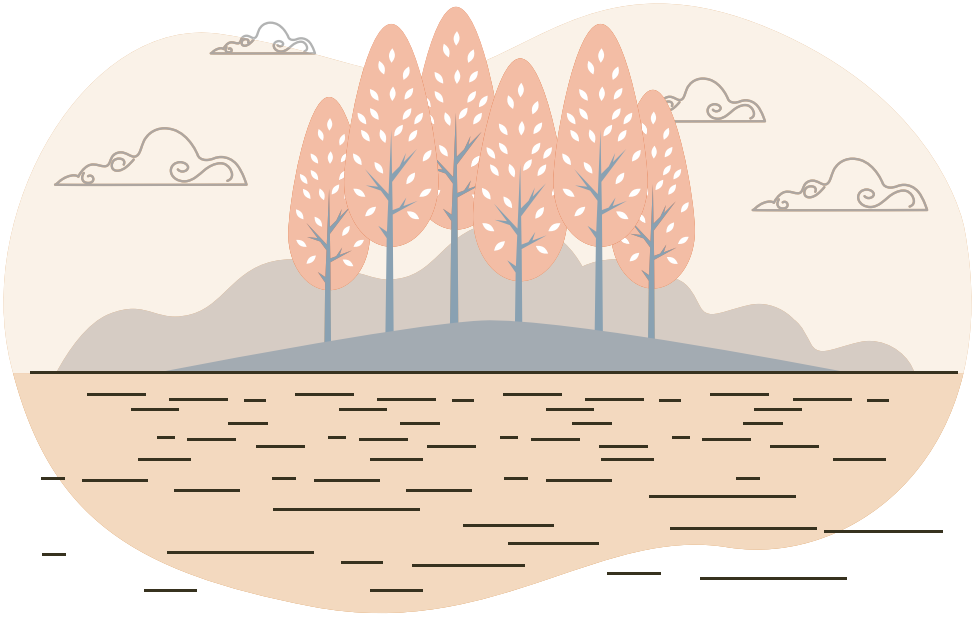

يقولُ الإمامُ ابن القيم –رحمهُ الله–: «من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ اللهُ به، ومن رحِمَهمْ رحِمَه، ومن أحسنَ إليهم أحسنَ إليه، ومن نفعهم نفعهُ، ومن سترهُم سترهُ، ومن عاملَ خلقهُ بصفةٍ عاملهُ اللهُ بتلك الصّفة بعينها في الدنيا والآخرة، فاللهُ تعالى لعبده حسبَ ما يكونُ العبدُ لخلقه»[1].

الرفقُ مطلوبٌ في النصح والتوجيه، والدعوة إلى الخير، والأمرِ بالمعروف والنهيَ عن المنكر: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[2].

وفي الحديثِ الصحيح: «بَشّرُوا وَلَا تُنَفّرُوا، وَيَسّرُوا وَلَا تُعَسّرُوا»[3].

---

(١) المصدر: كتاب الوابل الصيّب من الكلم الطيّب، للإمام ابن القيم، ص ٣٥.»

(٢) [النحل: ١٢٥]

(٣) صحيح أبي داود | الصفحة أو الرقم ٤٨٣٥.

الرفقُ بطالبِ العلم

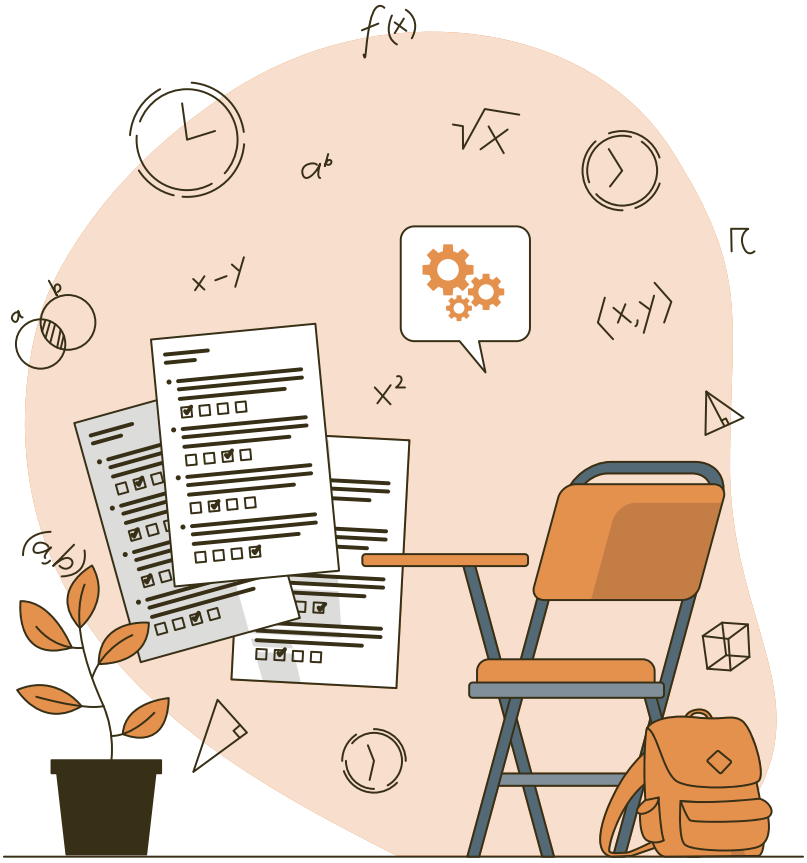

ومن الرفقِ المطلوب، واللين المرغوب الرفقُ بالمتعلِّم والجاهل والسائل، وملاطفتهم، وإيضاح المسائلِ لهم، وإبانة الحقِ وتلخيص المقاصد، وتَرْك ما لا يحتملون، وعذرهم فيما يجهلون، وتعليمهم ما لا يعلمون بالرفقِ واللِّين، لا بالغلظةِ والجفوة والتعالي، قال عزَّ وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾[1].

والسائلُ هو طالبُ العِلْمِ والدِّينِ في أحد القولين؛ فلا تنهر السائلَ في العلم، وقد كان أبو الدرداء ينظرُ إلى أصحابِ الحديث ويبسطُ رداءه لهم ويقول: «مرحبًا بأحبَّةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم».

(١) [الضحى: ١٠]

وفي حديث أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كُنَّا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وفي صحيح مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ:روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم –رضيَ الله عنه– قال: «لما قدمت على رسول الله ﷺ علمتُ أموراً من أمور الإسلام، فكان فيما علمت أن قال لي: إذا عطستَ فاحمد الله، وإذا عطسَ العاطسُ فحمدَ الله فقل: يرحمك الله، قال:بَيْنَما أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي (أَيْ: مَا نَهَرَنِي) وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[2].

والرفقُ والسماحةُ مطلوبان في البيع والشراء، وسائر المعاملات،

ففي الحديث الصحيح: «رحم اللهُ عبداً سمحاً إذا با ع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

وهكذا في حال التعامل معهم بأي لون من المعاملات.

(١) القرآن الكريم – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – تفسير سورة الضحى – الآية ١٠.
(٢) صحيح مسلم: ٥٣٧ .

الرفقُ مطلوبٌ مع المعسر والمدين

قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[1]

"مَن سرَّهُ أنْ يُنجيَهُ اللهُ مِن كَرْبِ يومِ القيامةِ وأنْ يُظِلَّه تحتَ عرشِه فلْيُنظِرْ مُعسِرًا»[2].

الرفقُ مطلوبٌ مع المخالف

قال جلَّ وعلا: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

فالدعوةُ تحتاج إلى رفق، والنصيحةُ تحتاج إلى رفق، والتعليمُ يحتاجُ إلى رفق، والتربيةُ تحتاج إلى رفق، وهذا هو منهجُ

---

(١) [البقرة: ٢٨٠]

(٢) المحدث :الطبراني .٣١/٥

(٣) [النور: ٢٢]

(٤) [الأعراف: ١٩٩]

حبيبنا المصطفى ﷺ في معالجةِ الأمور، ومواجهةِ الأحداث، وتهذيبِ النفوس، وتربيةِ الأجيال، وتعليمِ الجاهل، وتنبيهِ المُسيء.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ أعْرَابِيًّا بَالَ في المَسْجِدِ، فَثَارَ إلَيْهِ النَّاسُ ليَقَعُوا به، فَقالَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ –أوْ سَجْلًا مِن مَاءٍ– فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ [1].

رُوِي أنَّ أبا الدرداء رضي الله عنه مرَّ على رجلٍ قد أصاب ذنباً والناس يسبُّونَه، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أرأيتم لو وجدتموه ساقطاً في أسفلِ بئرٍ ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: نعم والله، فقال: فإنه في كُربةٍ ومُصيبةٍ أعظم من الساقطِ في بئرٍ، فلا تسُبوا أخاكم، واحمدوا اللهَ الذي عافاكم[2].

(١) صحيح البخاري: ٦١٢٨.

(٢) كتاب: مختصر تاريخ دمشق نويسنده :ابن منظور مجلد :٢٠ صفحة: ٣٧.

الرفق بالنفس حتى في جانب العبادة

فمن ذلك نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو عن مواصلةِ الصيام والقيام.

أخرجَ البخاري ومسلم من حديثِ أنس أنَّ النبي ﷺ رأى شيخًا يُهادَى بين ابنيه قال: ما بال هذا؟ قالوا: نذرَ أن يمشي. قال: «إنَّ الله عن تعذيبِ هذا نفسه لغني، وأمرهُ أن يركب»[1].

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث عائشة قالت: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: مَن هذِه؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِن صَلَاتِهَا، قَالَ: مَهْ، علَيْكُم بما تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لا يَمَلُّ اللَّهُ حتَّى تَمَلُّوا وكانَ أحَبَّ الدِّينِ إلَيْهِ مَادَامَ عليه صَاحِبُهُ[2].

(١) الراوي: أنس بن مالك | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ١٨٦٥ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه مسلم (١٦٤٢).

(٢) صحيح البخاري .٤٣

الدِّينُ يُسرٌ لا عُسرٌ، وقد أرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه إلى الطَّريقِ الأرشدِ للدِّينِ والتَّديُّنِ، فأوضَحَ أنَّه ينْبغي على المؤمنِ أنْ يَقومَ بما يُطِيقُه مِن العِبادةِ، مع التَّرغيبِ في القصْدِ في العملِ؛ حتَّى لا يُصابَ بالمَلَلِ والفُتورِ.

وفي هذا الحديثِ تَرْوي أمُّ المُؤمنِينَ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ عليها يومًا وكانتْ عندَها امرأةٌ، فلمَّا سأَلَ عنها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ذكَرَتْ عائشةُ أنَّ هذه فُلانةُ، وسمَّتْها، ثمَّ ذكَرَتْ كَثرةَ صَلاتِها وعِبادتِها، وأطنَبَتْ في مَدْحِها.

فزَجَرَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقال: مَهْ! أي: كُفِّي عن مَدْحِها والثَّناءِ عليها؛ فما فعَلَتْه لا يَستحِقُّ الثَّناءَ؛ لمُخالفتِه السُّنَّةَ؛ فإنَّ الدِّينَ في مُتابَعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والعمَلِ بسُنَنِه، وليس في التَّشديدِ على النَّفسِ وإرهاقِها بالعِبادةِ.

ثمَّ أرشَدَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: «ولكنْ عليكم بما تُطيقونَ» فاشتَغِلوا مِن الأعمالِ بما تَستطيعون المُداوَمةَ عليه، وافعَلوا ما تَقدِرون عليه مِن الصِّيامِ والقيامِ، ولا تَشُقُّوا على أنفُسِكم. وقولُه: فوَاللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا، ومِن العُلماءِ مَن يقولُ: إنَّ قولَه: «لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا» يُرادُ به بَيانُ أنَّه مهْما عَمِلْتَ مِن عمَلٍ فإنَّ اللهَ يُجازِيك عليه، فاعمَلْ ما بَدَا لك؛ فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ مِن ثَوابِك حتَّى تَمَلَّ مِن العمل ما دامَ واستَمرَّ عليه صاحِبُه وإنْ قَلَّ، ويُثمِرُ القليلُ الدائمُ بحيث يَزيدُ على الكثيرِ المُنقطِعِ أضعافًا كَثيرةً.

وفي الحديثِ: بَيانُ شَفقتِه ورَأفتِه بأُمَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه: أنَّ العَملَ القليلَ الدائمَ خَيرٌ مِن الكثيرِ المُنقطِعِ. شرح حديث موسوعة الدرر السنية.

وعليكم بالرفقِ فإنَّ النفسَ البشريةَ تميلُ إلى الرفقِ ولينِ الجانبِ وطيبِ الكلامِ، وتأنسُ به، وتنفرُ من الغلظةِ والفظاظةِ والخشونةِ والعنف.

والرفق كذلك مطلوب حتى مع الأطفال والصغار

فقد كان المصطفى ﷺ يحملهم ويُقبّلهم ويُطْعمهم الثمرة أول نتاجها ويُكنّيهم.

وروى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا؛ فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ :فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ؛ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ[1].

أخرجَ مسلمٌ في صحيحه من حديثِ جابر بن سمرة –رضي الله عنهما– قال: «صليتُ مع رسولِ الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدانٍ فجعلَ يمسحُ خدي أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسحَ خدي

(١) | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح أبي داود | الصفحة أو الرقم:٤٧٧٣.

قال: فوجدت ليده بردًا كأنما أخرجها من جؤنةِ عطار»[1].

بردًا؛ أي: راحةً، ورائحةً طيّبةً، كأنَّما أَخرجَ يَدَه مِن جُؤنةِ عَطَّار، أي: سَلَّتِه الَّتي يضَعُ فيها عُطورَه، والعطَّارُ هو مَن يَبيعُ العِطرَ.

وفي الحديثِ: بَيانُ طِيبِ رِيحِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وفيه: بَيانُ كَريمِ خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَواضُعِه ورَحمَتِه بالأطفالِ والضُّعفاءِ.

الرفقُ بالحيوان

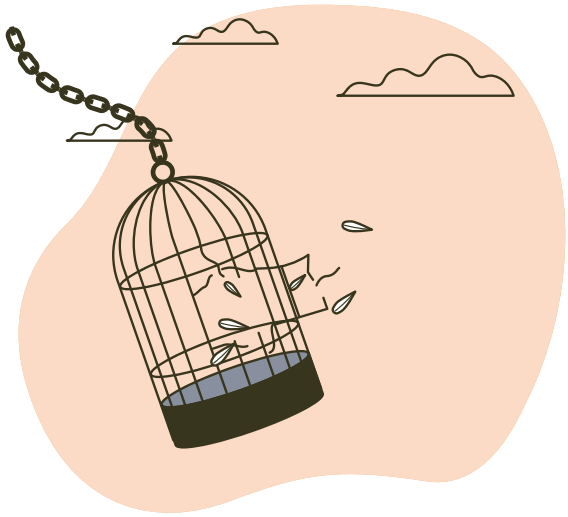

ولأهميةِ الرفقِ واللينِ في التعاملِ والتصرفاتِ لم يكتفِ ﷺ بأنَّ حثَّ عليه في معاملة الناس، بل أكَّدَ على الرفقِ والسهولةِ حتى في معاملةِ البهائِم، روى أبو داود أنَّ رسول الله ﷺ أرادَ أن يخرجَ إلى البادية؛ فأرسلَ إلى عائشة –رضي الله عنها– ناقةً لتركبها، وكانت هذه الناقةُ صَعْبَة غير مذلَّلةٍ، فلما أرادت عائشة أن تركبها تمنَّعت عليها وتلدَّنَت فلعنتها عائشة –رضي الله عنها–؛ فقال –صلى الله

(١) صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٣٢٩.

عليه وسلم: «مهلاً يا عائشة! إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كله، فعليكِ بالرفق»[1].

فقال لها النبي ﷺ :يا عائشة، ارفقي.....

أخرج أبو داود من حديث سهل بن الحنظيلة قال:مرَّ رسولُ الله ببعيرٍ قد لَحِقَ ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في هذهِ البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»[2].

رأى النبي صلى الله عليه وسلم بعيرًا قد لصق ظهرُه ببطنه من شدةِ الجوع، فأمَر صلى الله عليه وسلم بالرِّفْق بالبهائم، وأنهُ يجبُ على الإنسان أن يُعاملها معاملةً حسنةً فلا يُكَلِّفها ما لا تستطيع، ولا يُقَصِّر في حقِّها في أَكْلٍ أو شُرْب، فإن ركبها بعد كانت صالحةً للركوب، وإن أكلها كانت صالحةً للطعام[3].

أنَّ النبي ﷺ دخل حائطًا لرجِل من الأنصار؛ فإذا جمل، فلما رأى النبي –صلى اللهُ عليه وسلم– حنَّ وذرفت عيناه، فأتاهُ النبي ﷺ فمسح ذفريه فقال: «من رب هذا الجمل؟»؛ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «ألا تتقي الله في هذهِ البهيمةِ التي ملَّكك الله إياها؛ فإنهُ شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه»[4].

ترفقوا بالدوابِّ والعجماوات، فقد أمَر الشارعُ صاحبَ الإبل إذا سافر بها في الخصب والعُشب والرعي أن يرفق بها؛ حتى تأخذ من الرعي ما يمسك قوَاها، ويردُّ شهوتَها، ونهاه عن تعجيلها، ومنعها من الرعي مع وجوده؛ حتى لا يجتمعَ عليها ضَعْف القُوَى، مع ألمِ كسرِ شهوتِها، وأمرَه إذا سافَر بها في القحط والجدب والمَحْل أن يُعجِّل السيرَ ليصل مقصدَه، وفيها بقيةٌ من قوتها، قبل أن تضعف.

---

(١) أخرجهُ الطبراني (٣/ ١١٨) والبيهقي (١٣/ ٢٣٦).

(٢) أخرجهُ أبو داود (٢٥٤٨) واللفظ له، وأحمد(١٧٦٢٥) .

(٣) وأخرج أبو داود –وأصله في مسلم بدون القصة– عن عبدالله بن جعفر

(٤) سنن أبي داود٢٥٤٩

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخَصِبِ، فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ –أي الجدب– فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا»[1].

الرفقُ أن تضعَ الأمورَ مواضعها

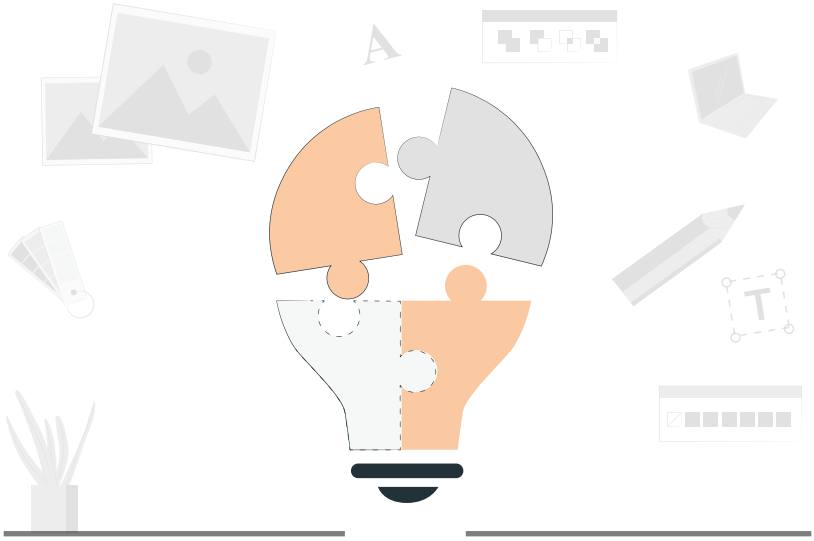

إنَّ بعض الخلق يضعُ للرفقِ معنًى خاطئًا؛ ظنًّا منهُ أنَّ الرفقَ لا يكونُ فيهِ غلظةٌ ولا شدةٌ، ولا انتقام، وهذا خطأ، فالرفقُ مثلاً في سياسةِ الدابة يكون أحيانًا بضربها، وفي تربيةِ الأولاد كذلك، وأحيانًا بهجرهم وزجرهم، وهذا الشرعُ المطهّر جاءَ بقتلِ القاتلِ وجلدِ القاذف، ونحو ذلك.

قال سفيان الثوري –رحمهُ الله–: «الرفقُ أن تضعَ الأمورَ في مواضعها؛ الشدةُ في موضعها، واللينُ في موضعه، والسيفُ في موضعه، والسوطُ في موضعه»[2].

(١) رواه مسلم: ١٩٢٦

(٢) ص٥٦ – كتاب فيض القدير – المكتبة الشاملة.

بهذا يتضحُ لنا أنهُ لا بُدَّ من مزجِ الغلظةِ باللينِ، والفظاظةِ بالرفق.

فالمحمودُ وَسَط بين العنفِ واللينِ كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباعُ إلى العنفِ والحدةِ أميل، كانت الحاجةُ إلى ترغيبهم في جانبِ الرفق أكثر؛ فلذلك كثر ثناءُ الشرعِ على جانبِ الرِّفْقِ دونَ العنف.

قال الشيخُ عبد الرحمن بن سعدي: «ومن أسماء –تعالى– الرفيق؛ أي في أفعالهِ وشرعه، ومن تأملَ ما احتوى شرعهُ من الرفق، وشرع الأحكام شيئًا بعد شيء، وجريانها على وجهِ السدادِ واليسرِ ومناسبةِ العباد، وما في خلقهِ من الحكمة؛ إذ خلقَ الخلقَ أطوارًا، ونقلهم من حالةٍ إلى أخرى بحِكَم وأسرارٍ لا تحيط بها العقول، وهو –تعالى– يُحِبُّ من عبادهِ أهلَ الرفقِ، ويُعطي على الرفقِ ما لا يُعطي على العنف، والرفقُ من العبدِ لا يُنافي الحزمَ فيكونُ رفيقًا في أمورهِ متأنيًا، ومع ذلك لا يُفوّتُ الفرص إذا سنحت، ولا يُهملها إذا عُرضت»[1].

فما أجملَ الرفقَ! وما أجملَ أهلهُ! وما أحوجَ الناسَ كلَّهم إليه!

الرفقُ من علاماتِ صلاحِ العبدِ وحُسنِ خُلقهِ، وسعادتهِ في الدنيا والآخرة، وهو من الأمورِ العامَّة التي تدخُلُ في كلِّ شيءٍ، فهو مطلوبٌ ومحبوبٌ في كُلِّ الأحيان وفي كُلِّ الأحوال، الرفقُ بالأهلِ، لا سيما من معكم بالبيت، رفقُ الإنسانِ بزوجته، الرفقُ بالأولاد، الرفقُ بالخادم، الرفقُ بالجيران، المديرُ يرفقُ بمدرسيهِ وعن موظفيهِ وعن العاملين تحت إدارته، وهكذا.

فالإسلامُ يدعو إلى الرفقِ في كلِّ مجالاتِ الحياة، فقد قالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ».

(١) كتاب تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي – ص ٢٠٧ – الرفيق الرقيب الستار الستير السلام القدوس السلام – المكتبة الشاملة

فما أجملَ الرفقَ، وما أجملَ أهله وما أحوجَ الناسَ اليوم إلى التعاملِ فيما بينهم برفقٍ ولين في كلِّ شؤونِ الحياةِ.

اللهم وفِّقنا لهداك، واجعل عملنا في رضاك.

اللهم اهدنا لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئَ الأعمالِ والأخلاقِ لا يقي سيئَها إلا أنتَ.

اللهم أعزَّ الإسلامَ، وأنجِ المستضعفينَ من المؤمنين.

سبحانَ ربكَ ربِّ العزةِ عما يصفون، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

م	المراجـــع
١	الحثّ على الرفق – الشيخ حسين بن عبد العزيز آل الشيخ.
٢	خلق الرفق – الشيخ عبد الله بن علي الطريف.
٣	الرفق – الشيخ خالد سبت.
٤	الرفق خلق كريم – الشيخ أحمد عماري.
٥	محاسن الرفق وآثاره الطيّبة – الشيخ بن محمد البدير.
٦	الرفق وأثره – الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد.
٧	ما كان الرفقُ في شيءٍ إلّا زانه – عبد الله محمد الطوالة.
٨	الرفق – الشيخ بن عبد الله الشايع.